العلاقة بين الفونيمات الثانوية والنداء

د. جمال دليع العريني

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

كلية الأميرة عالية / جامعة البلقاء التطبيقية

الملخص

تحاول هذه الدراسة أن تكشف لنا العلاقة بين الفونيمات الثانوية و النداء ، و دور علماء العربية القدماء الذين لم يغفلوا عن الإشارة إلى الفونيمات الثانوية وعلاقتها بالنداء، إذ نجدهم يذكرون بعض المصطلحات المتضمنة لمفهوم الفونيمات الثانوية في هذا المقام، كالنبر، والنغم، والنغمة، واللحن، والترنم التي تدور في معناها حول مصطلح التنغيم عند المحدثين، و يربط سيبويه وغيره بينها وبين المراد من النداء، ويبين أنّ الغرض من حروف النداء امتداد الصوت وتنبيه المدعو، وتتجلّى العلاقة بين النداء والفونيمات الثانوية في جوانب مختلفة من أسلوب النداء وذلك من خلال دراسة بعض قضايا النداء، مثل: حذف أدوات النداء، وحذف المنادى، وغير ذلك، وتخلص الدراسة إلى أنّ الفونيمات الثانوية قد سدّت مسدّ أدوات النداء، وأن النداء قد تحقق في هذا التركيب بالاعتماد على الفونيمات الثانوية بدلا من أدوات النداء، وهذه العلاقة التي نلمسها بين حذف أداة النداء، والفونيمات الثانوية نلحظها كذلك في الحالات التي يحذف فيها المنادَى .

Phonemes secondary role in the style of the appeal

This study attempts to reveal the relationship between the call and secondary phonemes, and the role of the ancient Arab scholars who did not lose sight of the reference to the secondary phonemes and their relationship to the appeal. As they recall some of the terms included the concept of secondary phonemes, Kalender, melody, tone, and singing ,wihch revolves in its meaning on the term toning as modernists. Sibuyeh for example linked between the secondary phonemes and meaning of the appeal. He shows that the purpose of calling letters along the sound and alerting the listeners and reflects the relationship between the call and secondary phonemes in diffrerent aspects of the method of appeal, though the study of some appeal issuse, such as Delete Tools appeal, delete advocated, and so on The study concludes that the phonemes secondary has blocked occlusive Tools appeal, has been achieved in this installation based on secondary phonemes instead of Tools appeal And relationship that are evident between delete Tool appeal and phonemes as we observed in the secondary cases in which deletes advocated.

المقدمة :

إنّ المتأمل في أسلوب النداء في كتب النحو يجده بحاجة إلى قراءة واعية لطبيعته ووظيفته ودلالته. فالمتكلم يستخدم هذا الأسلوب في معظم الأحيان عندما يحتاج إلى التعبير عن مشاعره وأفكاره، و عندما يجد أنّ الأمر يرتبط بالمخاطب قرباً وبُعْداً في المكان والزمان، أو المنزلة الذاتية والاجتماعية، أو الحالة التي يكون عليها.

ومما يلفت النظر أنّ بعض أدوات النداء تتميّز عن سائر أدوات النداء الأخرى بسمات خاصة، ومن تلك الأدوات (يا) فهي دون سائر أدوات النداء تتميز بأنها لكل منادى، قريبا كان أو بعيدا، أو متوسطا ، وهي مما يتعين بها نداء اسم الله تعالى ، فلا ينادى بغيرها ، كما أنه لا يستغاث بغيرها ، و تشارك (وا) في الندبه، فلا يندب بغيرهما [١] وهي وحدها التي تحذف في النداء، وهي وحدها التي يحذف المنادى بعدها ، كما أنه لايجوز حذفها من المنادى المندوب، والمنادى المستغاث، والمنادى المتعجب منه، والمنادى البعيد، لأنّ القصد إطالة الصوت، والحذف ينافيه [٢] .

١ الغلاييني ، جامع الدروس العربية ٣: ١٥٥
٢ المصدر نفسه ٣ : ١٥٤ ، ١٥٦

ولورجعنا إلى مصادر التراث لوجدناهم يتعرضون إلى عدم حذف هذه الأدوات و يعللون ذلك بالدور الموسيقي الذي يقوم به بعضها، إذ يذكر ابن مالك أنّ حذف أدوات النداء يمتنع في المندوب والمستغاث والمنادى البعيد، لأنّ المراد فيهنّ إطالة الصوت والحذف ينافيه"[١] ، وابن يعيش يقول في أداة الندبة "واما وا فمختص به الندبة، لأن الندبة تفجع وحزن، والمراد رفع الصوت ومده لإسماع الحضرين"[٢]

و إشارتهم إلى أنّ إطالة الصوت ورفعه هما العلة في عدم حذف هذه الأدوات، هي في الحقيقة إشارة مهمة إلى الفونيمات الثانوية، مثل: الطول Length–Duration والنبر **Stress** والتنغيم Intonation ، التي لها دور رئيس في توجيه الدلالة كفونيمات فوق تركيبية .

ولذا فإنّنا في هذه الدراسة سوف نتناول بعض قضايا النداء في ضوء الفونيمات الثانوية فوق التركيبية، آملين تفسير بعض القضايا اللغوية المتعلقة بهذا الخصوص في باب النداء، كما في حذف المنادى بعد (يا).

١ ابن مالك، أوضح المسالك ٣ : ١١

٢ ابن يعيش، شرح المفصل ٢ : ١٣

إنّ حكم النحاة على النداء بأنه جملة فعلية محذوفة الفعل والفاعل معا، وأنّ معاملتهم له على أنه من المنصوبات، و أنه شكل من أشكال المفعول به بفعل محذوف، أمر يحتاج إلى إعادة نظر في بعض جوانبه، فحين يربط النحاة الاختصاص بالنداء، يقررون أنّ الاختصاص يجري على مذهب النداء من النصب بفعل مضمر، وأنّ الاختصاص والنداء يجريان على مذهب المفعول به من النصب بفعل ظاهر أو مقدر، وما قرره النحاة لا غضاضة فيه، ولكن هناك ملامح صوتية تلتحم بغيرها، وتعمل على تمييز هذه التراكيب بعضها عن بعض، وهذه الملامح الصوتية التي يُطلق عليها الفونيمات الثانوية، لابد أن تؤخذ في الحسبان عند تحليل التراكيب النحوية، بصورة أدق وأوضح مما كان عليه الأمر عند القدماء، و لا ننكر أنّ القدماء، وعلى وجه الخصوص ما نجده في كتب المعاني، قد بينوا المواضع التي يخرج فيها أسلوب النداء إلى أساليب أخرى، وهو أمر جدير بالتقدير، إلاّ أنهم لم يعزوا ذلك، كلّه أو بعضاً منه، إلى الدور الذي تقوم به الفونيمات الثانوية، وإلى مثل هذا يذهب الدكتور عبد السّلام المسّدي الذي يرى أنّ التنغيم في العربية له وظائف نحوّية، لأنّه يفرق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب، ومع هذا فإنه لم يحظَ لدى أجدادنا ببحث مستفيض، أو تطبيق مستند إلى قواعد محددة[1] .

١ المسّدي، عبد السلام، التفكير اللسّاني في الحضارة العربية :٢٢٦

وسنجد فيما نستقبل من كلامنا هذا أن ثمّة موضوعات تتعلق بالنداء، تعامل معها النحاة على أنها تركيب إسنادي فعليّ، ولكنها في الحقيقة أساليب لها دلالات أخرى واضحة و مفهمة خارج هذا الإطار، ولا تعدو كونها مركّبا لفظيا لا يرتفع إلى منزلة الجملة، ولا يصح تسميته بها.

إنّ الغرض الرئيس من هذا التركيب اللفظي يهدف أساسا إلى تنبيه المخاطب، واللغة العربية فيها أدوات تنبيهية مختلفة، مثل: ألا الاستفتاحية، والهاء في أسماء الإشارة، وأدوات النداء هي أيضا من هذا القبيل، ويضاف إلى هذه القرائن اللفظية الفونيمات الثانوية، التي تُخرِج التراكيب عن معناها الظاهر إلى معاني أخرى، وفي أحيان كثيرة تكون قرينة هذه الفونيمات، أعظم أثراً من القرينة اللفظيّة، أي الأداة، إذ يمكن أن تغير معنى الجملة والأداة المركبّة معها من المعنى الذي تُحمل عليه إلى معنى آخر، ومثل هذا نجده في أسلوب النداء، إذ نجد التركيب اللفظي يشتمل على أداة النداء، ولكنّه لا يحمل معنى االنداء، كما في قول الشاعر:

أيا قمراً تبسّمَ عن أقاحٍ ويا غصناً يَميلُ مع الرياحِ [1]

١ ديوان ديك الجن: ١٠٧

فعلى الرغم من أنّ التركيب اللفظي في هذا البيت جاء بصيغة أسلوب النداء، إلاّ أننا لا نلمح معنى النداء فيه على الإطلاق، وإنما نجد فيه معنى المدح، ومُحدِّد هذه الدلالة في البيت السابق هو التنغيم الذي يؤدّى به، وعلى العكس من هذا قد نجد بسبب التنغيم، معنى النداء في تركيب يخلو من أداة النداء، كما في قوله تعالى :" يوسف أعرض عن هذا"[1] فمع أنّ أداة النداء غير موجودة، إلاّ أنّها حاضرة في الذهن على تقدير "يا يوسف" بسبب التنغيم الذي يرافقها.

والتنغيم واحد من الفونيمات الثانوية التي سنعرض لها، لنتبين العلاقة التي تربطها بالنداء و الدور الذي تقوم به في هذا الأسلوب، و قبل الحديث عن الفونيمات الثانوية سنشير بشكل موجز إلى تاريخ ظهور مصطلح الفونيم ومفهومه عند علماء اللغة، ومن ثم إلى تقسيمه إلى فونيمات أولية وأخرى ثانوية.

الفونيم (Phonem): من المصطلحات اللسانية المعاصرة الناتجة عن التوجه لدراسة اللغة في بعض مناهج الدرس اللغوي الحديث دراسة علمية تجريبية، وقد قوبل هذا المصطلح في لغتنا العربية بمصطلحات كثيرة منها: صوتيم، وصوت، وصوت مجرد،

١ يوسف: ٢٩

وصوتية، وفونيمية، ولافظ، إلاّ أنّ مصطلح فونيم هو الذي كتب له الشيوع في الدراسات اللسانية المعاصرة لكونه مصطلحا عالميا[١] .

وكان ظهور هذا المصطلح في أواخر القرن الثامن عشر في اجتماع للجمعية اللغوية الفرنسيةعام ١٨٧٣ على لسان ديفريش ديسجنتس Defirich Desgenttes ثم تلاه لويس هافيت Louis Havet ومن بعدهما فرديناند دي سوسير Ferdinan de Saussure إلاّ أنّ أول من أعطى للفونيم تصورا دقيقا هو اللغوي البولندي جان بدوين Jan Baudouin[٢] عندما دعا إلى التفريق بين ما يلفظه المتكلم حقا وبين مايظن المتكلم أنه يلفظه والسامع أنه يسمعه.

ثم تعددت التصورات لمفهوم هذا المصطلح بسبب تعدد تصورات العلماء للغة، والصوت اللغوي، وتعددت مناهجهم في دراستها، ومن أبرز الاتجاهات في تعريف الفونيم المنبثقة عن هذا:

١. **النظرة العقلية أو الذهنية** : وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن الفونيم بنية ذهنية أو عقلية، وهو جزء من البنية اللغوية هذه لدى أفراد البنية اللغوية الواحدة[٣] وهذه النظرة تعدّ الفونيم صوتا نموذجيا يسعى المتكلم إلى نطقه ولكنه يفشل في ذلك، ومن أصحاب هذا

١ عمر، دراسة الصوت اللغوي: ١٦٥
٢ عمر: دراسة الصوت اللغوي: ١٦٩
٣ استيتية: اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج:٦٤

الاتجاه تروبتسكوي Trubetzkoy الذي عرّف الفونيم الفونيم بأنه (الصورة العقلية للصوت) و سابير Sapir الذي قال عنه (إنه صوت مثالي نحاول تقليده في النطق ، ولكننا نفشل في إنتاجه كما نريد[١] .

٢. **النظرة المادية:** يرى دي سوسير أنّ الصوت لا يتحدد بالوصف العضوي فقط [٢] ولا يستقل بكينونته العضوية النطقية عن الأثر السمعي الذي يحدثه لدى المتكلم، و أنّ الفونيم يتحدد من جانبين أثناء الكلام: الجانب العضوي، والجانب السمعي، كما أشار دانيال جونز إلى الجانب المادي للفونيم عند تعريفه للفونيم على أنه"عائلة أو مجموعة من أصوات اللغة المتقاربة سماعا ونطقا، والتي لا تظهر مطلقا في نفس الإطار الصوتي"[٣] .

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض المعاصرين يرى أنّ دانيال جونز من أصحاب الاتجاه المادي في نظرته للفونيم، في حين أنّ آخرين يرون أنه ليس كذلك، وإنما هو صاحب اتجاه مستقل يطلقون عليه الاتجاه البنائي، باعتبار أنّ الفونيم قيمة نطقية قابلة للتنوع في السياقات البنائية المختلفة، وأنّ تنوعاتها غير قابلة للتداول[٤] وهو ما نأخذ به لما فيه من دقة في التمييز بين المنهجين، وإن كانا متوافقين في بعض الأفكار.

---

١ عمر: دراسة الصوت اللغوي: ١٧٥
٢ شاهين: في علم اللغة العام:١٣٢
٣ المصدر السابق: ١٣٢
٤ استيتية: اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج:٦٨

٣. **النظرة الوظيفية:** وأصحاب هذا الاتجاه ينظرون إلى الفونيم من الجانب الوظيفي الذي يؤديه في الدلالة كعنصر له القدرة على التفريق بين المعاني، وتغيير دلالة الألفاظ، سلبا وإيجابا، فالإيجاب يتمثل في تحديد معنى الكلمة التي هو فيها، والسلب يتمثل في التفريق بين الكلمة التي تحتوي عليه، والكلمات الأخرى، فالفونيم من وجهة النظر الوظيفية هو أصغر وحدة صوتية تؤدي إلى تغيير المعنى، وتعد مدرسة براغ رائدة النظرة الوظيفية للفونيم، ومن أعلامها الذين ذهبوا إلى هذا تروبتسكويTrubetzkoy و ياكبسون Jakobson[١].

٤. **النظرة التجريدية:** يُنظر إلى الفونيم من هذه الزاوية على أنه وحدة مجرّدة خيالية خارج الإطار النفسي أو المادي، وهذه الوحدة المجردة توجد داخل التركيب اللغوي مستقلة عن الخصائص الصوتية المرتبطة بها، ومن أصحاب هذا النظر العالم الياباني جمبوJimbo والإنجليزي بالمرPalmer[٢].

كما أنّ بعض العلماء لم يستبعد الجانب الاجتماعي في نظرته للفونيم، وبعضهم ربط التحليل الفونيمي بالتحليل النحوي[٣]، وتنقسم الفونيمات إلى قسمين: أولية وثانوية، أما الأولية فهي قسمان

١ عمر: دراسة الصوت اللغوي: ١٨٠
٢ المصدر السابق: ١٨١
٣ المصدر السابق: ١٨٢

أيضا:صوامت(الأصوات الساكنة) ، وصوائت(الحركات) بنوعيها: الطويلة والقصيرة، وأما الثانوية فهي أنواع أيضا سنجمل الحديث عنها على النحو الآتي:

الفونيمات الثانوية(Suprasegmental Phonem):

إنّ السلسلة الكلامية لأية لغة من اللغات ليست مجرد فونيمات أولية؛ صوامت وصوائت فقط، بل هي مجموعة هذه الأصوات المتناسقة والمنتظمة في تراكيب لغوية؛ يحمل كل تركيب منها خصائص تعكس الصورة الذهنية، ويضاف إليها ملامح صوتية تلتحم بغيرها، وتعمل على تمييز هذه التراكيب بعضها عن بعض، ويطلق عليها فونيمات ثانوية، أو فوق تركيبية، أو إضافية، أو فوق قطعية، Suprasegment Phoneme وقد أطلق عليها اسم الفونيمات نظرا إلى أنها كالصوامت والصوائت تميز المنطوقات بعضها عن بعض، وتتمثل هذه الفونيمات في ظواهر صوتية، لها أدوار وظيفية مثل : النبر، والتنغيم، والطول، والمفصل، وفيما يأتي توضيح موجز عن بعض الفونيمات الثانوية التي لها صلة مباشرة بموضوع الدراسة وهي: التنغيم ، والطول ، والنبر .

التنغم (Intonation) :

عُرّف بأنه تتابع النغمات الموسيقية، أو الإيقاعات الموسيقية، أو الإيقاعات في حدث كلامي مُعيّن Intonation [١] وهو موسيقى الكلام[٢] أو الإطار الصوتي الذي تنطق به الجملة في السياق [٣]، ويرتبط بارتفاع الصوت وانخفاضه عند النطق نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين.

ولكل لغة عاداتها التنغيمية، ومن خلال التغييرات الصوتية من ارتفاع، وانخفاض، واستواء في درجة الصوت يتم التوصل في كثير من اللغات إلى التعبير عن الحالات النفسية المختلفة، وعن المشاعر والانفعالات، فتستخدم تنغيما خاصا لكل من: الرضا، والغضب، والدهشة، والاحتقار، والحزن، والحب....الخ.

ويقوم التنغيم في لغات كثيرة ومنها اللغة العربية بدور فونولوجي كبير، إذ إننا نجد صيغتين متماثلتين صوتيا مختلفتين دلاليا لاختلاف الصيغة التنغيمية لكل منهما، ونجد ذلك واضحا في لغتنا العربية في أساليب: الإغراء والتحذير، والاستفهام، والتعجب، والاستغاثة، وغيرها.

فالتنغيم في الجملة الاستفاهمية والعرض مختلف عنه في جملة الإثبات، وفيهن جميعاً يختلف عن الجملة المؤكدة ، فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة بها ، فالمقاطع الأولى والأخيرة

١ . ماريو باي، اسس علم اللغة :٩٣.

٢ . أنيس، الأصوات اللغوية : ١٠٣.

٣ . حسان، اللغة العربية معناها ومبناها:٢٢٦.

وما بينها لها نغمات معينة، فبعضها صاعد، وبعضها هابط، و بعضها مستوٍ، وعن طريق التنغيم نستطيع "أن نقرر ما إذا كان الحدث الكلامي ينتمي إلى نوع أو آخر من أنواع الأساليب اللغوية ؛ كالخبر أو الاستفهام أو التقرير أو التعجب، فالذي يفرق بين التعجب ، والاستفهام، والخبر في الجمل الثلاث الآتية :

١- ما أحْسَنَ زيدا!
٢- ما أحْسنُ زيدٍ !
٣- ما أحْسنَ زيدٌ

الذي يفرق بينها هو التنغيم وليس الحركة الإعرابية كما كان يرى القدماء [١]

ويتضح لنا أثر التنغيم في توجيه معنى بيت عمر بن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبُّها قلتُ بهراً عددَ النجمِ والحصى والترابِ[٢].

فالتنغيم في قوله (تحبها) قد أغنى عن أداة الاستفهام وحل محلها ، ويمكن أن يتغير معنى البيت من خلال تغيير

١. الشايب ، محاضرات في اللسانيات : ٢٥٧
٢ . ديوان عمر بن أبي ربيعة:٦٠.

النغمة، فيمكن تحويره من الاستفهام إلى التقرير، أو إلى التأنيب، أو الإيحاء، أو الاعتراف[1] ويظهر الدور الدلالي للتنغيم في الأساليب التأثرية، والانفعالية، المختصرة ، نحو: نعم! لا! يا سلام ! الله ! سبحان الله ! طيّب ! ....الخ ، فهذه الأساليب تُنطق بنغمات مختلفة ، وبحسب النغمة المنطوقة تكون دلالتها على المعاني المختلفة مثل الحزن، والفرح، والشك، والتأنيب، والاستغراب، والتحقير ...الخ، وفي هذه الأحوال يكون التنغيم هو الفيصل في تحديد المعنى المراد وعلى هذا فالتنغيم يعد مكوّنا من مكونات البنية الصوتية ، ومن ثم فهو يساعد على تمييز كلمة من كلمة ، وقد يكون التنغيم الملمح الخلافي الوحيد بين كلمتين أو أكثر متشابهتين في البنية الصوتية ، والتغيم يَدخل في جميع التراكيب ، بما في ذلك أسلوب النداء ، إذ قد يُخرجه من سياق النداء إلى سياقات أخرى على نحو ما سيتضح في موضعه من هذه الدراسة ، ومثل التنغيم في إحداث تغييرات في المعنى الطول.

الطول (Length–Duration أو الكمية Quantity):

١ . حسان، اللغة العربية معناها ومبناها :٢٢٧.

كما التنغيم وسائر الفونيمات الثانوية، يسهم طول الصوت في تمييز المنطوقات بعضها عن بعض ، ويُعرّف بأنه " الزمن الذي يستغرقه النطق بهذا الصوت ويقدر عادة بجزء من الثانية"[١] والطول قد يكون صفة أساسية طبيعية للصوت وقد يكون صفة عارضة مكتسبة، فأصوات اللين بطبيعتها أطول من الأصوات الساكنة، وصوت الفتحة قد وجد عند قياسه أنه أطول من الكسرة والضمة[٢] ، وقد تنبه ابن جني إلى هذا في كتابه الخصائص إذ يقرر أن "أصل المد وأقواه، وأعلاه وأنعمه وأنداه،إنما هو للألف، وإنما الياء والواو في ذلك محمولان عليها، وملحقان في الحكم بها، والفتحة بعض الألف"[٣] ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بدرجة انفتاحها ، فالحركة الأكثر انفتاحا هي الأكثر طولا .

والأصوات قابلة للإطالة، لأن إطالة الصوت في حقيقته مثل التنغيم وسائر الفونيمات الثانوية، نوع من تعديل النطق بحسب ما يقتضي الحال لدى المتكلم؛ فعند الندبة تظهر الحاجة إلى تطويل الصوت، ويشير ابن جني إلى أنّ تطويل الصوت غاية المتكلم في هذا المقام، فالألف إذا وقعت بين صوتين يكون لها صدى، وتكون أطول منها في الوقف، وكذلك الحركات الأخرى، ويدلل على ذلك

١. أنيس، الأصوات اللغوية : ٨٠
٢ . أنيس، الأصوات اللغوية : ٨٠، وشاهين، في علم اللغة العام :١١٠
٣ . ابن جني، الخصائص، الجزء٣ : ١٢٧

"بأن العرب لمّا أرادت مطلهنّ للندبة وإطالة الصوت بهنّ في الوقف، وعلمت أنّ السكون عليهن ينتقصهنّ ولا يفي بهنّ أتبعتهنّ الهاء في الوقف توفية لهنّ وتطاولا إلى إطالتهنّ، وذلك قولك: وازيداه، واجعفراه.....واعمراه، وكذلك أختاه، وقولهم: وانقطاعَ ظهرِيه، واغلامَهُوه ، و واغلامَهُموه ، وتقول في الوصل : واغلامَهُمو لقد كان كريما! وانقطاعَ ظهري من هذا الأمر! "[1] ففي الوصل تسقط الهاء لأنّ الصوت اللاحق لها سد مسدها .

وتظهر الحاجة إلى تطويل الصوت كذلك عند التذكر أثناء الكلام؛ إذ يعمد المتكلم إلى تطويل الصوت عندما يريد أن يتذكر ما يريد قوله، وقد بيّن سيبويه أنّ الرجل إذا تذكّر ولم يُرد أن يقطع كلامه يقول: قالا ؛ فيمدّ قال؛ ويقولوا، فيمد يقولُ، ومن العامي، فيمد العامِ ؛ ويقول إنّه قد سُمع عن العرب أثناء كلامهم، "ويجعلونه علامة ما يَتذَكر به ولم يَقطع كلامه، فإذا اضطروا إلى مثل هذا في الساكن كسروا ، سمعناهم يقولون: إنّه قَدِي، في قد ، ويقولون: ألِي، في الألف واللام، وسمعنا مَن يوثق به في ذلك يقول: هذا سيفني ، يريد سيفٌ، ولكنه تذكّر بعدُ كلاما ولم يرد أن يقطع اللفظ، لأنّ التنوين حرف ساكن فيُكسر كما تُكسر دال قد"[2] وعلى هذا فإطالة الصوت عند الندبة والتذكر يعد مكوّنا من مكونات البنية الصوتية،

١ ابن جني، الخصائص الجزء٣ : ١٢٩

٢ سيبويه، الكتاب،الجزء٤ :٢١٦

ومن ثم فهو يساعد على تمييز كلمة من كلمة، وبتعبير سيبويه إنّه علامة للتذكر حين لا يرغب المتكلم في قطع كلامه، كما أنه أسلوب للتفجع .

ويذكر ابن جني أنّ الجامع بين الندبة والتذكر هوالحاجة إلى إطالة الصوت في الموضعين، وأنّ إطالة الصوت تقع للحروف سواء وقعت حشوا، أو متطرّفة في الأواخر، و أنّ الحركات تمطل عند التذكر حتى تكتمل حروفا، أي تصير حركات طويلة، فإذا صرن كذلك فإنهنّ يمطلن أيضا حينئذ؛ كما تمطل الحروف، ومن ذلك قولهم "عند التذكر مع الفتحة في قمتَ: قمتا، أي قمتَ يوم الجمعة، ونحو ذلك، ومع الكسرة: أنتي، أي أنتِ عاقلة، ونحو ذلك، ومع الضمة، قمتو ، في قمتُ إلى زيد، ونحوذلك "[1] .

والأصوات المتجاورة يؤثر بعضها في بعض من حيث الطول، فقد وجد الباحثون المحدثون أنّ "صوت اللين يزداد طولا إذا وليه صوت مجهور، فصوت اللين في كلمة bid أطول منه في كلمة bit، وكذلك لاحظوا أنّ الصوت الساكن يكون أطول إذا سبقه صوت لين قصير، والعكس بالعكس، فالنون في bin أطول منها في men

١ .ابن جني، الخصائص الجزء٣ : ١٣٠

والنون في man أطول من الإثنين لأنّ صوت اللين a أطول من e وهذه أطول من i "[١] كما يؤثّر في طول الصوت وكميّته النبر .

النبر Stress :

وهو"وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا ما قورن ببقية الأصوات"[٢]، وهذا الوضوح الصوتي سببه "حفز قوي من الحجاب الحاجز، وعضل الصدر لهواء كثير"[٣]، فالمقطع الصوتي المنبور يتطلب جهدا من الطاقة أكبر من غير المنبور، و الصوت المنبور أطول منه حين يكون نفسه غير منبور، وانسجام الكلام في نغماته يتطلب تطويلا لبعض الأصوات وتقصيرا للبعض الآخر، إذ يميل الصوت للقصر إذا وليه صوت غير منبور وذلك تحقيقا لحاجة الكلام في أن تتقارب مقاطعه المنبورة بعضها من بعض [٤] .

وقد عرفت العربية النبر وعبّرت عنه بمسمّياتها المختلفة: الهمز، والعلو، والرفع، ومطل الحركات، والارتكاز، والإشباع، والمد، والتوتر، والتضعيف[٥] وزيادة نبر الكلمة في الجملة لا يعدو أن يكون

١ .أنيس، الأصوات اللغوية : ٨٦
٢ .حسان ، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء :١٦
٣ .ابن سينا، أسباب حدوث الحرف :٧٢
٤ .أنيس، الأصوات اللغوية : ٨٢
٥ .عبدالجليل، علم اللسانيات الحديثة :٣٥٢

زيادة في المقطع الهام في هذه الكلمة، ففي قولنا : هل هذا أخوك؟ المقطع المنبور في كلمة أخوك هو (خو) فإذا زيد نبر هذه الكلمة في جملتها فليس المقصود بهذا سوى زيادة نبر هذا المقطع (خو) ليصبح أوضح في السمع مما كان[1] ويلجأ المتكلم للنبر عند رغبته في التعبير عن التوكيد أو الانفعال، وهنا يكون النبر على مقطع لا يُنبر في العادة، والغرض منه إبراز كلمة ما أو جزء من كلمة وإعطائها قوة خاصة لمعناها بحيث يشد انتباه السامع لهذا الجزء المنبور من الكلمة، وإذا تأملنا في الفونيمات الثانوية هذه نجد ثمة علاقة بينها وبين أسلوب النداء في بعض جوانبه، يمكن أنْ تتضح لنا كما سيأتي .

دورالفونيمات الثانوية في النداء :

في النحو العربي يوجد الكثير من الأبواب التي تحتاج في تحليل مادتها تحليلا علميا دقيقا إلى الربط بينها وبين الفونيمات الثانوية أو فوق التركيبيةSuprasegmental Phoneme ، ومن بين هذه الأبواب النداء الذي يخضع إلى هذه الفونيمات، وتُعد أحد ضوابطه، وعلماء العربية القدماء لم يغفلوا عن الإشارة إلى الفونيمات الثانوية و علاقتها بالنداء، إذ نجدهم يذكرون بعض المصطلحات

١ أنيس، الأصوات اللغوية ١٠٢

المتضمنة لمفهوم الفونيمات الثانوية في هذا المقام، كالنبر الذي يعني عندهم علو الصوت وارتفاعه، وهذا "يكاد يكون قريبا من تحديد علماء اللغة المحدثين لهذا المصطلح"[١]، والنغم، والنغمة، واللحن، والترنم التي تدور في معناها حول مصطلح التنغيم عند المحدثين، وتتجلّى العلاقة بين النداء والفونيمات الثانوية في جوانب مختلفة من أسلوب النداء نوردها على النحو الآتي:

١. العلاقة باعتبار الغرض من النداء:

إنّ إشارة علماء العربية القدماء إلى دور الفونيمات الثانوية في تحديد الغرض من النداء واضحة وجلية في مؤلفاتهم، إذ يربط سيبويه بين الفونيمات الثانوية و المراد من النداء، ويبين أنّ الغرض من حروف النداء امتداد الصوت وتنبيه المدعو، وذلك في معرض حديثه عن السر في استخدام الحروف الأربعة: يا، و أيا، و هيا، و أي فيقول:" قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشئ المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلاّ بالاجتهاد"[٢] والاجتهاد الذي يعنيه سيبويه هنا هو النبر عينه لأنه "وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا ما قورن ببقية

١ الخليل، المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، ط١: ١٩١

٢ سيبويه ، الكتاب،ج ٢ :٢٣٠.

الأصوات"[١]، وهذا الوضوح الصوتي سببه "حفز قوي من الحجاب الحاجز، وعضل الصدر لهواء كثير"[٢]، فالمقطع الصوتي المنبور يتطلب جهدا من الطاقة أكبر من غير المنبور.

وفي باب الندبة الذي يشترك مع النداء في أنّ كلا من المنادى والمندوب مدعو (غير أنّ المندوب متفجع عليه) يذكر سيبويه مصطلح الترنم الذي يقصد به التنغيم، وذلك بقوله:"اعلم أنّ المندوب مدعو لكنه متفجع عليه، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف، لأنّ الندبة كأنما يترنمون بها"[٣]، وابن يعيش يؤكد هذا بقوله:"اعلم أنّ المندوب مدعو، ولذلك ذكر مع فصول النداء، ولكنه على سبيل التفجع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنه لا يستجيب، كما تدعو المستغاث به، وإن كان بحيث لا يسمع كأنه تعده حاضرا، وأكثر ما يقع في كلام النساء، لضعف احتمالهن وقلة صبرهن، ولما كان مدعوا بحيث لا يسمع أتوا في أوله بياء أو واو لمد الصوت، ولما كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخرا للترنم"[٤]" فابن يعيش يذكر مصطلح الترنم والتطريب، ويعني بهما التنغيم.

١. حسان، مناهج البحث في اللغة :١٦
٢ .ابن سينا ، أسباب حدوث الحرف :٧٢
٣. سيبويه ، الكتاب، ج ٢ :٢٢١
٤. ابن يعيش ، شرح المفصل، ج٢ :٢١٣

و يربط ابن يعيش بين النداء والندبة في الإطار العام، و في الغرض الذي ينشده المنادي والمتفجِّع أو النادب، وبعد هذا الربط بين النداء والندبة، يبين أنّ:"الغرض بالنداء التصويت بالمنادى ليقبل، والغرض من حروف النداء امتداد الصوت وتنبيه المدعو ، فإذا كان المنادَى متراخيا عن المنادِي أو معرضا عنه لايُقبل إلا بعد اجتهاد، او نائما قد استثقل في نومه استعملوا فيه جميع حروف النداء ما خلا الهمزة وهي: يا، و أيا، و هيا، و أي، يمتد بها الصوت ويرتفع"(١) وذلك لأنّ هذه الأدوات الأربع يمكن تطويلها، و نبرها، وتوضيحها، لأنّ النبر وضوح نسبي لصوت أو مقطع، والغرض منه إبراز كلمة ما أو جزء من كلمة، وإعطائها قوة خاصة لمعناها بحيث يُشد انتباه السامع لهذا الجزء المنبور.

ويعلل استخدام وا في باب الندبة فيقول:"وأما وا فمختص به الندبة، لأنّ الندبة تفجع وحزن، والمراد رفع الصوت ومده، لإسماع الحاضرين"(٢)

وفي الوقت نفسه يقوم المتكلم أثناء نطقه بأدوات النداء، هذه بزيادة المدة الزمنية التي تُنطق فيها هذه الأدوات، وهذه المدة الزمنية مرهونة بمدى استجابة المنادَى، فإن كانت استجابته سريعة قصرت،

١. المصدر السابق، ج٢ : ١٥.
٢ ابن يعيش ، شرح المفصل، ج٢ :١٢٠

وإن كانت غير ذلك طالت، بل ربما احتاج المنادي لما هو أكثر من ذلك وهو استخدام غير أداة من أدوات النداء .

ونخلص من هذا إلى أنّ أدوات النداء هذه التي يرتفع معها الصوت، ويمتد بقصد إسماع الحاضرين، هي الغرض، وهي الهدف في بعض الأحيان، وإن كان الهدف من النداء، في أحيان أخرى التنبيه، أو الدعاء، أو غير ذلك، وهذا واضح من تعبير القدماء "والمراد رفع الصوت ومده، لإسماع الحاضرين"[١] وقولهم" اعلم أنّ المندوب مدعو، ولذلك ذكر مع فصول النداء، ولكنه على سبيل التفجع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنه لا يستجيب، كما تدعو المستغاث به، وإن كان بحيث لا يسمع كأنه تعده حاضرا .... ولما كان مدعوا بحيث لا يسمع أتوا في أوله بياء أو واو لمد الصوت، ولما كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخرا للترنم"[٢] إذن الغرض من زيادة يا وَ وا في بداية الكلمة هو مد الصوت، و الغرض من زيادة الألف آخرا هو الترنم، وكل هذا في الحقيقة ما هو إلاّ شكل من أشكال الفونيمات الثانوية.

٢ . العلاقة باعتبار القرب والبعد:

١ المصدر السابق، ج٢ :١٢٠

٢ المصدر السابق ، ج٢ :٢١٣

الاعتبار في النداء على أساس القرب أو البعد ما هو إلاّ مراعاة لبعض الفونيمات الثانوية، فنبر الصوت، أو تطويله، أو تقصيره مبنيٌّ على أساس القرب، أو البعد، ولذلك يعلل الصبان اشتقاق النداء من "ندى الصوت أي بعده"[١] .

ويحتوي نداء البعيد على قسمين : نداءِ البعيد الحقيقي، وإنزالِ القريب منزلة، البعيد، وقد يجتمعان في نداء الله سبحانه وتعالى؛ في كتابه العزيز، فإن صدر النداء من العبد لخالقه فهو نداء للبعيد بعداً حقيقياً كامناً في علوّه جلّ في علاه؛ و إن صدر من الله سبحانه وتعالى فهو نداء للقريب قرباً حقيقياً كامناً في رحمة الله سبحانه وتعالى.

وطبيعة أداة النداء التنغيمية هي التي تحدد لنا ما إذا كانت تستخدم لنداء القريب أو البعيد، سواء كان على الحقيقة أو المجاز، ف (يا) مثلا تستخدم لنداء البعيد لما تختص به من طبيعة صوتية ، فهي تتشكل من جوف الفم مع حركة انفتاح الفك الأسفل باتجاه الصدر، وهي من الأدوات التي يمكن أن تفي بهذا الغرض ، إذ يطول معها النفس ، وينساب معها الهواء حرا طليقا دون أن يعترضه عارض ، لأنها تنتهي بحركة طويلة متسعة، يكون اللسان معها مستويا في قاع الفم، مع ارتفاع خفيف في وسطه، حيث يبقى الفم

١ الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني ، ١: ١٩٧

مفتوحا بشكل متسع، وحجرات الرنين فيه كبيرة [1] وهذه الصفات التي جعلتها تؤدي معاني محددة في سياقات معيّنة، لأنّها تخرج من أقصى الحلق ثم تلتصق بالقعر العميق لتجويف الفم؛ مما يجعلها بعيدة المدى، وأكثر التصاقاً بالنفس الداخلية، وفي كثير من هذه المواضع هي أداة إفصاحية تُستخدم للتعبير عما يجول في النفس، وما يمور في الخاطر من مشاعر الحزن، أو الفرح ، أو الدهشة أو غيرها، مما لا يحيطه وصف، أو تدركه عبارة حين تفيض النفس بنشاط من العاطفة يصعب عليها كبته، فتسعى للتخلص منه بوسائل مختلفة، و يشارك (يا) في هذه الصفات أيا، و هيا، فالمقطع الأخير فيهما من نفس النسيج المقطعي ل (يا) وهو: ص ح ح لهذا كله جاءت هذه الأأدوات، أدوات اتصال للبعيد، والأمر نفسه يقال في الندبة مع وا.

٣ . العلاقة في حالة حذف أدوات النداء :

تنبه النحاة ألى أن النداء لايقتصر على وجود الأداة وحدها في الجملة الندائية، بل يمكن الاعتماد على المنادَى وحده دون أداة النداء لنصيغ جملة ندائية، وإن لم تكن ثمة حاجة لهذا يمكن حذف هذه الأدوات كلها استغناء عنها، وذلك إنْ جعلتَ المنادى بمنزلة من

١ عبد الجليل ، علم اللسانيات الحديثة :٣٢١

هو مقبل عليك أو من هو في حضرتك [١] فلست في هذا المقام بحاجة إلى أداة النداء، أو إلى مزيد من الجهد في رفع الصوت ومده لمخاطبة السامع، إذ إنه منتبه لا يحتاج إلى ذلك، وهذا بخلاف المستغاث به، والمتعجب منه، فلا بد من ملازمة (يا) لهما، "وذلك لأنّ المستغاث عندهم متراخ أو غافل ، والتعجب كذلك "[٢] والقول نفسه ينطبق على الندبة " يلزمها يا وَ وا ؛ لأنهم يدعون ما قد فات وبعُد عنهم ، ومع ذلك أنّ الندبة كأنّهم يترنّمون فيها ، فمن ثمّ ألزموها المد، وألحقوا آخر الاسم المدّ مبالغة في الترنّم "[٣] ومن فات وبعُد عنهم أنزلوه منزلة الغافل المتراخي

يقول النحويون: إنه يجوز حذف أداة النداء وتقديرها، وقد ورد ذلك في الآية الكريمة من قوله تعالى: "يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا"[٤] وفي آيات أخرى كقوله تعالى: "ربنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا"[٥] أي يا ربنا، وهذا كثير وشائع في كتاب الله تعالى وفي أساليب العرب، وأداة النداء المحذوفة التي يقدرها النحاة هي (يا) لكونها أشهر أدوات النداء، ولا ينادى اسم اللّه عز وجل إلا بها، ولكونها تتميز

١ سيبويه ، الكتاب، ج ٢ :٢٣٠.
٢ سيبويه ، الكتاب ،ج ٢ :٢٣١.
٣ المصدر السابق ،ج ٢ :٢٣١.
٤ يوسف: ٢٩
٥ البقرة: ٢٨٦

بخصائص سبق أن أشرنا إليها في هذه الدراسة[١] واللافت للنظر أنّ النحاة في كل تركيب ندائي لا يشتمل على أداة للنداء ، يقولون إنّ الأداة محذوفة و يقومون بتقديرها، وكأنه لا سبيل إلى تحقق النداء إلاّ بوجود أداة لهذا الغرض، ظاهرة أو مقدّرة، وكتب النحو مليئة بالشواهد التي من هذا القبيل، كما في الآيتين الكريمتين السابقتين، والذي يبدو لنا في هذا أن معنى النداء لا يتحقق بأداة النداء وحدها، ظاهرة أو مقدّرة كما يتصور النحاة، وإنما قد يتحقق أيضا بالمنادى وحده، حين ينضاف إليه ملامح صوتية تلتحم به، وتعمل على تمييزه، إنّ هذه الملامح الصوتية، أو الفونيمات الثانوية، أو فوق التركيبية، هي التي حققت لنا معنى النداء عند غياب أدواته ، أو في حالة حذف أدوات النداء كما يقول النحاة.

إننا في الواقع اللغوي المستعمل في حياتنا اليومية نلجأ إلى ذلك كثيرا ، فنحذف أداة النداء ونستعيض عنها بالفونيمات الثانوية مثل : النبر:Stress و الطول :Length–Duration أو الكمية Quantity وذلك بمد الصوت في المنادى ونبره، أو تنغيمه بأداء معين، بحيث يكون الأسلوب ندائيا، وكثيرا ما يكون أداؤنا لأسلوب النداء على النحو الآتي: محمَّاد ، جعفار ، رجاب ، بدلا من : يا محمد، ويا جعفر، ويا رجب ، فيُكتفى بإطالة الصائت القصير ونبره في المقطع الأخير من الاسم المنادَى، ونُطقه على شكل صرخة

١. سبق في ص: ١

كبيرة، وهنا نلحظ أنّ الحيز النطقي قد سد مسد أداة النداء، وذلك بإطالة المقطع الثاني ونبره في كل من : محمد، وجعفر، و رجب ، وعند التدقيق في البنية المقطعية لأداة النداء (يا: ص ح ح) و كلٍ من: (محماد: ص ح /ص ح ص/ص ح ح ص/ و(جعفار: ص ح ص / ص ح ح ص) و(رجاب: ص ح / ص ح ح ص) نجد أنّ البنية المقطعية لأداة النداء يا و المقاطع الأخيرة في الأسماء المناداة السابقة متشابهة، (ص ح ح) و(ص ح ح ص) ولولا أنّ المقطع الأخير في الأسماء المناداة السابقة ينتهي بصامت لأصبحت متماثلة، وإغلاق المقطع بهذا الصامت له دور وظيفي هام جدا، وذلك لكونه يزيد في إطالة الصوت، كما يشير ابن جني إلى أنّ تطويل الصوت غاية المتكلم في هذا المقام ، فالألف (الفتحة الطويلة) إذا وقعت بين صوتين يكون لها صدى، وتكون أطول منها في الوقف، وكذلك الحركات الأخرى، ويدلل على ذلك "بأن العرب لمّا أرادت مطلهنّ للندبة وإطالة الصوت بهنّ في الوقف، وعلمت أنّ السكون عليهن ينتقصهنّ ولا يفي بهنّ أتبعتهنّ الهاء في الوقف توفية لهنّ وتطاولا إلى إطالتهنّ، وذلك قولك : وازيداهْ ، واجعفراهْ.....واعمراهْ ، وكذلك أختاهْ ، وقولهم : وانقطاعَ ظهرِيه ، واغلامَهُوه ، و واغلامَهُموه ، وتقول في الوصل : واغلامَهُمو لقد كان كريما ! وانقطاعَ ظهري من هذا الأمر!"[1] ولهذا في الوصل

١ ابن جني، الخصائص ، ٣ : ١٢٩

تسقط الهاء لأنّ الصوت اللاحق لها سد مسدها، وكذلك الحال هنا ختم المقطع الأخير بصامت بغرض إطالة الصوت.

ونخلص من هذا إلى أنّ الفونيمات الثانوية قد سدّت مسدّ أدوات النداء، وأن النداء قد تحقق في هذا التركيب بالاعتماد على الفونيمات الثانوية بدلا من أدوات النداء، وهذه العلاقة التي نلمسها بين حذف أداة النداء، والفونيمات الثانوية أو فوق التركيبية، نلحظها كذلك في الحالات التي يحذف فيها المنادَى على النحو الآتي .

٤ . العلاقة في حالة حذف المنادَى:

يقول النحاة إنه قد يُحذف المنادى وتبقى أداة النداء دليلاً عليه ، فيقال: يا بؤسٌ لزيد. بمعنى يا قوم بؤس لزيد[١]، ويروي سيبويه عن أبي عمرو قوله:"يا ويل لك، ويا ويح لك، كأنه نبّه إنسانا ثم جعل الويل له"[٢] ومعنى كلام سيبويه أن حرف النداء للتنبيه، وما بعد أداة النداء جملة اسمية مؤلّفة من مبتدأ وهو قوله (ويحٌ) وخبر وهو قوله (لك) ، والذي سوّغ الابتداء بالنكرة كونه دعاء[٣].

١ .ابن يعيش ، شرح المفصل، ١: ٢٤
٢ . سيبويه، الكتاب، ٢ :٢١٩
٣ . ابن يعيش ، شرح المفصل، ١ : ٢٤

ويضرب النحاة أمثلة لذلك، ويسوقون شواهد من القرآن الكريم وأشعار العرب، فمن شواهد القرآن الكريم قوله تعالى : "ياليت قومي يعلمون"[١] وقوله تعالى:" ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا"[٢] وقوله تعالى:" ألا يا اسجدوا لله"[٣]. في قراءة الكسائي، أمّا الشعر فإن الشواهد فيه كثيرة، ومن ذلك:

ألا يا اسلمي يا دارَميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ[٤]

ياحبذا جبلُ الريان من جبلٍ وحبذا سكنُ الريان من كانا [٥]

ومن ذلك أيضا ما ورد في ثنايا كتب النحو واللغة:

يا رُبَّ غابطنا لو كان يطلبُكم لاقى مباعدةً منكم وحرمانا [٦]

يا رُبَّ مثلِك في النساءِ غريرةٍ بيضاء قد متّعتُها بطلاقِ [١]

١ . يس : ٢٦

٢ . الانعام : ٢٧

٣ . النمل : ٢٥

٤ . ديوان ذي الرمة ، ج١ : ٥٩٩ ، و الرماني، معاني الحروف، : ٩٣، و ابن هشام، شرح شذور الذهب : ١٨ و النحاس، معاني القرآن، ٣ :٢٠٦ .

٥ . ديوان جرير، ج١ : ٥٩٦ ، وابن هشام، شرح شذور الذهب :١٨ وابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية إبن مالك، ط ٥، ٤ : ٩.

٦ .ديوان جرير، ١ : ٥٩٥ ، و ابن جني، سر صناعة الإعراب، ٢: ٤٥٧، و الصيمري، التبصرة و التذكرة ، ط ١، ١ :١٧٦.

ألا يا لسلمي ياهندُهندَ بني بدر وإنْ كان حيّاذا عِدى آخرَ الدهرِ [٢]

يا ليت زوجَـــــك قــد غدا متقـــــــلداً سيـــفا ورمحا [٣]

يا أرغمَ اللّهُ انــفـاً انتَحلمُله يا ذا الخنى ومقالِ الزورِ والخطلِ [٤]

يا دارَسلمى يا لسلمي ثم لسلمي بسمسمٍ أو عـــــن يمينٍ سمسم [٥]

و لعلّ ما دفع النحاة إلى تقدير منادى محذوف ، في كثير من التراكيب، أن النداء من علامات الاسم، فلا تدخل اداة النداء على فعل أو حرف، ولهذا نجدهم مختلفين في تأويل الشواهد القرآنية والشعرية التي من هذا القبيل، إذ ذهبوا فيها مذاهب مختلفة: فهناك مَن يرى أن يا أداة نداء دخلت على منادى محذوف، وأصحاب هذا الرأي يشترطون لذلك أن تكون أداة النداء يا دون سائر الحروف، و

١ . سيبويه ، الكتاب ، ١ : ٤٢٧ ، وابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ٢ :٤٥٧ وابن مالك، شرح شذور الذهب : ١٨ ، والصيمري ، التبصرة والتذكرة، ١ :١٧٥ .

٢ ديوان الأخطل: ١١٠، والزجاج، معاني القرآن واعرابه٤: ١١٥، والفراء ، معاني القرآن٢: ٢٩٠

٣ ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك،٤ :٨ وابن جني، الخصائص٢: ٤٣١

٤ ابن هشام، أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك ٤ : ٨ وابن هشام ، شرح شذور الذهب ١٨:

٥ الزجاج، معاني القرآن واعرابه، ٤: ١١٥، والرماني، معاني الحروف :٩٣ .

أن يكون بعد حرف النداء فعل أمر، كما في قوله تعالى:"ألا يا اسجدوا لله"[١] أو دعاء، كما في قول الشاعر:

يا لعنةُ اللّهِ والاقوامِ كلِّهم والصالحين على سِمعانَ من جارِ[٢]

ومن الذين ذهبوا إلى هذا الرماني[٣]، والفراء[٤]، والنحاس[٥]، والزجاج[٦].

ويذكر أبو جعفر النحاس أنّ هذا موجود في كلام العرب، إلاّ أنه غير معتاد أن يقال: يا قدمَ زيد[٧] و الزجاج يقول إنه غير معتاد عند العامة [٨] ومنهم مَن يرى أن يا قد خرجت عن معناها الأصلي النداء لتفيد معنى جديداً وهو التنبيه، ومن الذين ذهبوا إلى هذا سيبويه، وهنا نلحظ التفاتة سيبويه إلى الجانب الدلالي وهي التفاتة في غاية الأهمية،وذلك لأنه لم يقف عند ظاهر التركيب، بل

١ . النمل: آية ٢٥
٢ النحاس ، إعراب القرآن ٣ :٢٠٧
٣ . الرماني ، معاني الحروف : ٩٣ .
٤ . الفراء، معاني القرآن ١ :٢٩٠
٥ . النحاس ، إعراب القرآن ٣ :٢٠٦ .
٦. الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ٤ :١١٥ .
٧. النحاس ، إعراب القرآن ٣ : ٢٠٦
٨ . الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ٤: ١١٦

تجاوز ذلك إلى البعد الدلالي"[١]"، ويمثل رأي ابن هشام رأيا ثالثا، إذ يأخذ برأي سيبويه، أي أنها للتنبيه، غير أنه يحصر ذلك في ثلاثة مواضع، وما عدا ذلك فإنّ المنادى يكون فيها محذوفا وهذه المواضع هي:

١. أن يأتي بعدها ليت كما في قوله تعالى (ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا)[٢]
٢. أو ربّ، نحو: يا رُبّ غابطنا لو كان يطلبكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا [٣]
٣. أو حبذا، نحو: يا حبذا جبلُ الريان من جبلٍ وحبذا ساكن الريان من كانا [٤]

ويرى ابن مالك أنه إذا وليها دعاء، أو فعل أمر، فهي للنداء لكثرة وقوع النداء قبلهما، و إلا فهي للتنبيه[٥]، كما في قراءة الكسائي

١. سيبويه ، الكتاب ٢ : ٢١٩.
٢. الانعام : ٢٧
٣. ديوان جرير ١ : ٥٩٥ و ابن جني، سر صناعة الإعراب ٢ : ٤٥٧ و الصيمري، التبصرة والتذكرة ١ : ١٧٦.
٤. ديوان جرير ١ : ٥٩٦ ، وابن هشام، شرح شذور الذهب :١٨ ، وابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية إبن مالك ٤ : ٩.
٥ . ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الاعاريب٢: ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

للآية الكريمة:"ألا يا اسجدوا لله"[١] وكقول الشاعر:

يا لعنةُ الله و الاقوام كلِّهم والصالحين على سِمعان من جارِ[٢]

ومن الواضح أنّ ابن مالك يقيس على الأغلب، وهذا ليس بالضرورة أن يكون مطردا، لأن سياق الحال في كثير من الشواهد يخالف هذا من الجانب الدلالي الذي لم يغفل عنه سيبويه كما سبق، ولهذا نجد أبا حيان الأندلسي، يشير إلى" أنّ القائل لذلك قد يكون وحده، فلا يكون معه منادى ثابت ولا محذوف"[٣] ومعنى هذا أنها ليست بالضرورة أن تكون للنداء إذا وليها فعل أمر أو دعاء بخلاف ما يقول ابن مالك.

وإذا تأملنا في هذه الآراء، نجد أنها جميعا لا تُخرِج هذا الأسلوب عن إطاره العام وهو النداء، على الرغم من أنّ بعضهم قد نص على أنّ "القائل لذلك قد يكون وحده، فلا يكون معه منادى ثابت ولا محذوف"[٤]وهنا نتساءل: من الذي يُنادَى إذا كان القائل وحده! ومن الذي يُنبّه إذا كان القائل وحده! وإذا كان الأمر كذلك، أي لم يكن هناك منادى ثابت ولا محذوف، كما يقول النحاة في كثير من

١ . النمل : ٢٥

٢ النحاس ، إعراب القرآن ٣ :٢٠٧

٣. الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ط ١، ج٣ :١١٨،١١٩.

٤. المصدر السابث : ١١٨،١١٩.

الشواهد الموجودة في بطون كتب النحو ، فإنّه يتعين أنّها في هذه الشواهد بالذات ليست للنداء، ولا للتنبيه، إذ لا يوجد عند المتكلم المنادي، إن جاز لنا تسميته بالمنادي، في بعض الأحيان مَن يُنادى أو يُنبّه ،كما ذكر أبو حيان الأندلسي.

وعليه فإنّ يا في هذه الشواهد تكون في سياق آخر غير النداء، وذات دلالة أخرى كغيرها من الأدوات في اللغة العربية ، التي تُلخّص معاني مختلفة مثل: العرض، والتحضيض، والتمني...الخ، وتكون الأداة هي الرابط، بين أجزاء الجملة كلها، بحيث يمكن للأداة عند حذف الجملة أن تؤدي المعنى كاملا كما في: لِمَ ، عمَ ، متى ، أين ، ربما، وإنْ، لعل، ليت، لو... الخ ، فيكون المعنى الذي تدل عليه هذه الأدوات هو معنى الجملة كاملة، وتحدده القرينة، ولا بنية للأدوات خارج السياق، لأن الأدوات ذات افتقار متأصل إلى الضمائم ، أو بعبارة أخرى ذات افتقار متأصل إلى السياق[١].

وكذلك يا، فهي في كثير من المواضع التي عدها النحاة أداة نداء دخلت على منادى محذوف، أو أنها أداة للتنبيه، فإنها ليست كذلك، وإنما هي كبعض الأدوات التي تؤدي معاني محددة في سياقات معيّنة، وفي كثير من هذه المواضع هي أداة إفصاحية، تُؤدّى بملامح صوتية معينة، ضمن إطار الفونيمات الثانوية، و تُستخدم

١ .حسان، اللغة العربية معناها ومبناها :١٢٥.

بتنغيم محدد، للتعبير عما يجول في النفس ، وما يمور في الخاطر، حين يكون الإنسان في حالة انفعال نفسي، وينتابه مشاعر الحزن، أو الفرح ، أو الدهشة أو غيرها، مما لا يحيطه وصف، أو تدركه عبارة حين تفيض النفس بنشاط من العاطفة يصعب عليها كبته، فتسعى للتخلص منه بوسائل مختلفة، و يا من الأدوات التي يمكن أن تفي بهذا الغرض، إذ يطول معها النفس، وينساب معها الهواء حرا طليقا دون أن يعترضه عارض، لأنها تنتهي بحركة طويلة متسعة، يكون اللسان معها مستويا في قاع الفم، مع ارتفاع خفيف في وسطه ، حيث يبقى الفم مفتوحا بشكل متسع، وحجرات الرنين فيه كبيرة[١] وهذه الصفات جعلتها من الأدوات التي تؤدي معاني محددة في سياقات معيّنة.

لنتأمل في قوله صلى الله عليه وسلم"يا رُبّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة "، إنّ التعبير النبوي الشريف يأتي ضمن هذا السياق، إذ يُروى عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: "استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا يقول: سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجرات (يريد أزواجه) لكي يصلين، يا رُبّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة "[٢]، إنّ رواية الحديث الشريف تخبرنا بوضوح أنّ الرسول صلى الله عليه

١ عبد الجليل ، علم اللسانيات الحديثة :٣٢١

٢ صحيح البخاري ج١ :٤٩ ، ٥٠

وسلم كان في حالة من الانفعال، وهذا واضح من قول أم سلمة : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا، وواضح من قوله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن، وهذا معناه أنّ النداء ليس هو المراد في هذا السياق، كما أنّ التنبيه ليس مرادا كذلك، ويعزز هذا أنّ الحديث الشريف له خمس روايات أربع منهن بدون (يا) كما في رواية "كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة"[1]، إنّ (يا) هنا لا تعدو أن تكون أداة إفصاحية استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم، للتعبير عن مكنون نفسه، من المشاعر.

ونخلص هنا إلى أن يا وما شاكلها من أدوات النداء، نحو: أيا، و هيا، كما تأتي أدوات للنداء، فإنها تأتي كذلك، أدوات إفصاحية، تُؤدّى بملامح صوتية معينة، ضمن إطار الفونيمات الثانوية، و تُستخدم بتنغيم محدد، للتعبير عما يجول في النفس ، وما يمور في الخاطر، حين يكون الإنسان في حالة انفعال نفسي، وينتابه مشاعر الحزن، أو الفرح ، أو الدهشة أو غيرها، لاكما كان يتصور بعض النحاة بأنها لا تأتي إلاّ للنداء ، أو للتنبيه، و أنّ المنادى معها إما ظاهر أو محذوف

❁❁❁❁❁

١ المصدر السابق،ج٧ : ١٥٢، ١٥٣

الخاتمة

وفي الختام فإنّ هذه الدراسة قد خلصت بالنتائج اللآتية:

أنّ أسلوب النداء يرتبط ارتباطا وثيقا، بالفونيمات الثانوية أو فوق التركيبية، وأنها تُعد أحد ضوابطه، وقد أوضحنا في ثنايا الدراسة أنّ الفونيمات الثانوية قد تُخرج هذا النمط من التراكيب في بعض الأحيان عن معنى النداء تماما ، وإن اشتملت على أدواته .

أنّ علماء العربية القدماء لم يغفلوا عن الإشارة إلى الفونيمات الثانوية و علاقتها بالنداء، إذ نجدهم يذكرون بعض المصطلحات المتضمنة لمفهوم الفونيمات الثانوية، كالنبر، والنغم، والنغمة، واللحن، والترنم التي تدور في معناها حول مصطلح التنغيم عند المحدثين، ويربط سيبويه وغيره بينها وبين المراد من النداء، ويبين أنّ الغرض من حروف النداء امتداد الصوت وتنبيه المدعو.

أنّ العلاقة بين النداء والفونيمات الثانوية تتجلى في جوانب مختلفة من أسلوب النداء ، مثل: حذف أدوات النداء، وحذف المنادى، وغير ذلك .

أنّ الفونيمات الثانوية قد تسدّ مسدّ أدوات النداء، وأن النداء قد يتحقق بالاعتماد على الفونيمات الثانوية بدلا من أدواته وهذا نلمسه عند حذف أداة النداء، وحذف المنادَى .

ثبت المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم**
٢. الأندلسي، أبو حيان(١٩٨٩): ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق مصطفى النحاس، الطبعة ١،مطبعة المدني .
٣. أنيس، إبراهيم، (١٩٧٩م) : الأصوات اللغوية ، ط٥ ، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة.
٤. أنيس، إبراهيم(١٩٦١): الأصوات اللغوية الطبعة الثالثة النهضة العربية.
٥. باي، ماريو(١٩٨٣م): اسس علم اللغة، ترجمة د. أحمد مختار عمر ط٢ ، عالم الكتب بيروت .
٦. ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت .
٧. ابن جني، أبو الفتح عثمان : سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار العلم دمشق.
٨. ابن سينا، الحسين بن عبدالله : أسباب حدوث الحرف، تحقيق محمد حسان الطحان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
٩. ابن هشام، عبد الله ابن يوسف : شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

١٠. ابن هشام، عبد الله ابن يوسف: مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، تحقبق محمد محي الدين عبد الحمسد، المكتبة العصرية، بيروت.

١١. ابن هشام، عبد الله بن يوسف : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت.

١٢. ابن يعيش، علي بن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت .

١٣. الحربي، عيسى البابي: حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار إحياء الكتب العربية.

١٤. حسان، تمام(١٩٧٩) : اللغة العربية معناها ومبناها، القاهرة ، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٥. حسان، تمام : مناهج البحث في اللغة، ط٢ دار الثقافة، الدار البيضاء.

١٦. الخليل، عبدالقادر مرعي(١٩٩٣م) : المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، ط١، منشورات جامعة مؤتة .

١٧. ديوان ديك الجن ،تحقيق مظهر الحَجي(٢٠٠٤)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١٨. ديوان ذي الرمة، تحقيق عبد القدوس ابو صالح ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٩. ديوان جرير، تحقيق محمد اسماعيل الصاوي، دار مكتبة الحياة ، بيروت.

٢٠. ديوان الأخطل، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيرو ت.

٢١. ديوان عمر بن أبي ربيعة(١٩٦٥م)، شرح مجمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، القاهرة.

٢٢. الرماني، علي ابن عيسى: معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح اسماعيل الشلبي، دار النهضة للنشر، مصر.

٢٣. الزجاج، أبو إسحاق ابراهيم بن السري : معاني القرآن واعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب .

٢٤. ستيتية، سمير شريف: اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج(٢٠٠٥)، ط١، عالم الكتب الحديث،الأردن، إربد

٢٥. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قمير: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت .

٢٦. شاهين، عبدالصبور (١٩٨٤م): في علم اللغة العام، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت .

٢٧. الشايب، فوزي حسن(١٩٩٩) : محاضرات في اللسانيات،ط١،منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن .

٢٨. البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٢٢هـ) : الجامع الصحيح، ط١، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان.

٢٩. الصيمري، عبد الله بن علي بن اسحاق(١٩٨٢ م): التبصرة والتذكرة ، تحقيق فتحي أحمد مصطفى علي الدين، ط ١، منشورات جامعة أم القرى، دار الفكر، دمشق.

٣٠. عبد القادر، عبد الجليل(٢٠٠٢): علم اللسانيات الحديثة، دار صفا للنشر والتوزيع.

٣١. عمر، أحمد مختار،دراسة الصوت اللغوي(١٩٩٧) عالم الكتب، القاهرة،

٣٢. الغلاييني، مصطفى(١٩٨٢م) : جامع الدروس العربية، ط١٦، المكتبة العصرية، بيروت.

٣٣. الفراء ، يحيى ابن زياد (١٩٨٣م) : معاني القرآن ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت

٣٤. المسّدي، عبد السلام(١٩٨١): التفكير اللسّاني في الحضارة العربية، الدّار العربية للكتاب، تونس.

٣٥. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل: معاني القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت .

❁❁❁❁❁